

ملف العدد:

الحواضر العلمية الجزائرية وإفريقيا

المقالات المنشورة في هذا الملف هي في الأصل بعض المحاضرات التي قدمت في المنتدى الدولي الثالث عقبة بن نافع الفهري - رضي الله عنه - (الحواضر العلمية الجزائرية وإفريقيا) الذي نظمته وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بمدينة سيدي عقبة (ولاية بسكرة) أيام 08 ، 09 ، 10، مارس 2014

علاقة حواضر المغرب الأوسط « الجزائر بممالك السودان الغربي »

د. بخدة طاهر
- جامعة وهران -

مقدمة:

إن معلوماتنا عن العلاقات بين شمال إفريقيا وجنوبها قبل الفتح الإسلامي غير معروفة تقريبا بسبب سكوت المصادر العربية والإسلامية عن هذه الفترة لبعدها عن مركز الخلافة وعدم معرفتهم لها واتساع مساحتها ومجاهل طرقها حتى أن عمرو بن العاص لما استأذن الخليفة عمر بن الخطاب في فتح إفريقيا (إفريقية) نهاه عن ذلك حسب ما ذكر ابن الحكم (فتوح إفريقية والأندلس) والبلاذري (فتوح البلدان) وكلاهما من مؤرخي القرن الثالث الهجري.

لكن يظهر أن القبائل البربرية المتاخمة لبلاد السودان، كانت على علاقة تجارية مع هذه الشعوب، وخاصة إذا علمنا أن البيزنطيين قد حاصروا هذه القبائل بخطوط دفاعية (الليمس) إلى ما وراء التل جنوبا، وبالتالي أصبحت مجالاتهم أقرب إلى الصحراء منها إلى الشمال.

ولما استقر الإسلام ببلاد المغرب واعتنقه الأهالي مع نهاية القرن الأول الهجري، شرعوا في نشره وتبليغه إلى سكان المنطقة القريبة منهم والتي أطلق عليها العرب بلاد السودان تمييزا لها عن بلاد البربر وقسموها إلى ثلاثة أقسام شرقي وأوسط وغربي. وإن كانت التسمية الأخيرة قد شاع إطلاقها لدى المؤرخين. وما يهمنا في هذا البحث هو إفريقيا الغربية والتي تمتد تقريبا من بحيرة التشاد شرقا مرورا بالنيجر وشمال نيجيريا إلى أعالي نهر الفولتا (بور كينا فاسو) ومالي و جنوب موريتانيا إلى السنغال غربا.

وإذا كانت مهمة نشر الإسلام قد ارتبطت في البداية بالتجارة باعتبارها وسيلة للتواصل، فإنها أخذت فيما بعد طابعا مباشرا، عن طريق الفقهاء والعلماء والمعلمون، الذين نشروا الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية إما بالهجرة والاستيطان أو عن طريق الرحلات، وقد ساعدهم على ذلك إسلام بعض ملوك السودان الذين فتحو الأبواب لهذا الدين باستقبال هؤلاء الفقهاء، وإنشاء المساجد والمدارس التي أصبحت مراكزا لتعليم اللغة العربية ومبادئ الدين وشعائره وهكذا استطاع الإسلام أن ينتشر في مناطق واسعة من إفريقيا ويربط بين شمال القارة وجنوبها وعلى ضوء هذه المقدمة البسيطة يمكن أن نشير أو نطرح الإشكالية الآتية :

كيف يمكن تفعيل الروابط والعلاقات الثقافية والاقتصادية وإعادة بعثها بين الجزائر وإفريقيا انطلاقا من العلاقات التاريخية العميقة، والتي من شأنها تدعيم الأمن والاستقرار في المنطقة، وفتح مجال التعاون والتكامل خدمة لمصالح شعوب القارة؟ إن الهدف من موضوع هذه المدخلة هو التعريف بالبعد التاريخي لعلاقات الجزائر بإفريقيا ودورها الحضاري، وقد عالجنا ذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: الإسلام وممالك السودان

وتضمن نقطتين:

- انتشار الإسلام في السودان الغربي.
- ممالك السودان الغربي من الفتح الإسلامي إلى القرن السادس عشر الميلادي.

المبحث الثاني: علاقة المغرب ببلاد السودان الغربي

تناولته في العناصر الآتية :

- العلاقات التجارية بين حواضر المغرب الأوسط ببلاد السودان.
- العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط وبلاد السودان.
- دور حواضر المغرب الأوسط في نشر الثقافة الإسلامية ببلاد السودان.
- علماء المغرب الأوسط في بلاد السودان (محمد المغيلي نموذجاً).

المبحث الثالث: الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي أثارها وأبعادها

وتضمن النقاط الآتية:

- الحواضر العلمية لبلاد السودان.
- الشخصيات العلمية لبلاد السودان.
- مظاهر الإشعاع الثقافي.
- أثار وأبعاد الثقافة الإسلامية ببلاد السودان.

المبحث الأول: الإسلام وممالك السودان

انتشار الإسلام في السودان الغربي:

تعود بوادر انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء أو ما يسمى ببلاد السودان بقسميه الأوسط والغربي إلى الحملات الأولى للفتح في عهد عقبة بن نافع خلال القرن الأول الهجري، عندما فتح زويلة وفزان وكوار⁽¹⁾ جنوب طرابلس، كما وصل في حملته الأخيرة نحو الغرب سنة 62هـ حيث فتح مدينة تاتكلاتين فقد ذكر ابن أبي زرع، أن هذه المدينة تسكنها قبيلة من صنهاجة يعرفون ببني وارث، وهم قوم صالحون على السنة والجماعة، أسلموا على يد عقبة بن نافع الفهري أيام فتحه للمغرب، وهم يجاهدون السودان الذين هم على غير الإسلام⁽²⁾ أما البكري فيذكر أن عقبة بن نافع غزى مدينة نفيس، وهي تقع في الطريق من أغمات إلى السوس قريبا من البحر، فحاصر بها الروم ونصارى البربر حتى افتتحها وبني بها مسجدا⁽³⁾ والنقطة نفسها يشير إليها ابن الأثير قائلا: وسار حتى وصل إلى السوس الأقصى، وقد اجتمع

1- ابن عبد الحكم: فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، د.ت، ص51 - 52. وكوار إقليم من بلاد السودان جنوبي فزان افتتحه عقبة بن نافع. ياقوت الحموي: معجم البلدان. تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط01، 1429هـ - 2008م، مج04، ص157. البلاذري: فتوح البلدان، لجنة تحقيق التراث، دار مكتبة الهلال. بيروت ط2000، ص222.

2- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة والوراقة. الرباط، 1972، ص120 - 121. ابن خلدون: تاريخ بن خلدون، اعتنى به وراجعه درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م - 1430هـ، مج02، ص1882.

3- البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، تقديم وتعليق حماد الله ولد السالم، المكتبة العصرية، بيروت، ص01، 2013م، ص272.

له البربر في عالم لا يحصى فلقبيهم وقتلهم وهزمهم... وسار حتى بلغ ماليان، ورأى البحر المحيط⁽¹⁾، وفي موضع آخر عندما يتطرق البكري لبلاد السودان يقول: وبلاد غانة قوم يسمون بالهنيهي من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانا في صدر الإسلام⁽²⁾ وعليه تكون هذه الحملات بداية محاولة العرب طرق الصحراء.

لم يتقدم الفاتحون الأوائل كثيرا نحو الصحراء، ربما لجهلهم بطرقها وشدة إيغالها ويبدو أن هدفهم كان الامتداد نحو الغرب للوصول إلى شواطئ البحر المحيط، وذلك لأسباب أمنية وإستراتيجية، حيث كانت بعض السواحل مراكز عسكرية للروم والتي يجب طردهم منها لحماية حدودهم الغربية، حتى لا يجاورونهم فيها، كما أن هذه المناطق ذات كثافة سكانية تستوجب دعوتهم إلى الإسلام، لكن ما عدا هذه الإشارات فإن المصادر الوسيطة، ولاسيما التاريخية منها، لا تشير بوضوح وحسم لدور العرب أو البربر في نشر الإسلام في إفريقيا قبل القرن الثالث الهجري، وقد يعزى ذلك إلى أن هذه الفترة شهدت ثورات واضطرابات سياسية ونزعات مذهبية⁽³⁾ شملت كامل بلاد المغرب تقريبا، خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري والتي هددت سلطة الأمويين في المنطقة وحالت دون التفكير في نشر الإسلام خارج هذه الولاية - بلاد المغرب - بل أصبح القضاء على الفتن والثورات أهم من الفتح، ومما حال دون مواصلة نشر الإسلام كذلك، سقوط الخلافة في دمشق بعد عقد واحد فقط من قيام أول ثورة، التي وجد فيها الثوار والخوارج فرصة لتأسيس دول مستقلة لهم، فاهتموا بأمورهم الداخلية، وهذه الدول التي ظهرت في بلاد المغرب، وبالأخص في المغرب الأوسط، لم تنعم بالاستقرار طوال فترة قيامها ولم تتعد عواصمها المناطق الداخلية حتى تكون قريبة من بلاد السودان وبالتالي نشر الإسلام.

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، اعتنى به محمد العربي، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م-1430هـ، مج 01، ص 708.

2- البكري: المصدر السابق، 268.

3- ظهرت بلاد المغرب حركة ثورية للخوارج، ضد السلطة الأموية سنة 122هـ انتهت بتأسيس بعض الدول المستقلة عن هذه الثورات ونتائجها، ينظر الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقيا والمغرب، تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ط 01، 1414هـ-1944م، ص 68. ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص: 94. ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، مراجعة ج س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط 03، 1983م، ج 04، ص: 52. ابن خلدون: المصدر السابق، مج 01، ص 1185. محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية ببلاد المغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص: 67. بوزياني الدراجي: دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م، ص: 31.

ابتداءً من النصف الأول للقرن الثالث الهجري⁽¹⁾ تعود المصادر لتزودنا بمعلومات عن انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، والتي تكاد تجمع على أن هذا الدور قامت به قبائل صنهاجة (المثلثون) بحكم قرب مواطنهم من بلاد السودان وكذلك تعدد قبائلهم وامتدادها على طول حدود الصحراء من البحر المحيط غربا إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة شرقا⁽²⁾.

ويظهر أن انتشار الإسلام قد سار ببطء بسبب شساعة الصحراء وتجزر العقيدة الوثنية لدى أولئك السكان، أو إلى عوائق أخرى كاللغة مثلا، وذلك إلى القرن الخامس الهجري حيث بدأ اعتناق الإسلام على نطاق واسع، ففي سنة 400هـ / 1009م أسلم أحد ملوك سنغاي يدعى زاكسي، ويقال له في كلامهم مسلم دم أي أسلم طوعا بلا إكراه⁽³⁾.

ومن المناطق التي دخلها الإسلام كذلك بلاد التكرور⁽⁴⁾ التي أسلم أهلها على يد أميرهم وارجابي بن رابيس⁽⁵⁾ الذي قام بنشر الإسلام في مدن مملكته مثل سلى⁽⁶⁾ وبريسي⁽⁷⁾.

لما ظهر أمر المثلثين، غزى أبو عبد الله محمد بن تيفات المعروف بتارشي بلاد السودان حيث أستشهد هناك بموضع يقال له بغارة قرب مدينة تاتكلاتين⁽⁸⁾ فولي أمر صنهاجة صهره يحيى بن إبراهيم الكدالي الذي شرع في تعليم القبائل القرآن وقيم لهم

- 1- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: 120 - 121. ابن خلدون: المصدر السابق مج02، ص: 1882.
- 2- البكري: المصدر السابق، ص: 257 - 258. مؤلف مجهول: الإستبصار في عجائب الأمطار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص: 217.
- 3- السعدي: تاريخ السودان، دار النشر هوراس، باريس 1981م، ص: 02 - 03.
- 4- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط02، ص: 134. الحموي: المصدر السابق، مج01، ص: 449. ابن الوردي: خريطة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق محمود فاخوري، دار الشرق العربي، بيروت، ص: 66. الإدريسي: نزهة المشتاق في اختيار الآفاق، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط01، 1431هـ-2010م، مج01، ص: 18. البكري: المصدر السابق، ص: 257. ابن خلدون: المصدر السابق، مج02، 1894م.
- 5- البكري، المصدر السابق، ص: 257 - 258.
- 6- سلى: مدينة على ضفة النيل (نهر السنغال) بشماله، وهي مدينة حاضرة، وبها مجتمع السودان، ومتاجر صالح الإدريسي: المصدر السابق، ص: 18. البكري: المصدر نفسه، ص: 258. الإستبصار: ص: 217. ابن الوردي: المصدر السابق، ص: 66.
- 7- بريسي: وهي مدينة صغيرة، لاسور لها، غير أنها كالقرية الحاضرة، وأهلها تجار متجولون، وهي على اثني عشر مرحلة من تكرور شرقا. الإدريسي: المصدر السابق، ص: 121.
- 8- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: 121.

رسم الدين، ويسوسهم بآداب الشرع⁽¹⁾، وفتح رفقة عبد الله بن ياسين أوداغست⁽²⁾ سنة 446هـ، ويبدو من قول البكري أنها كانت مملكة قوية في منتصف القرن الرابع الهجري قبل أن يدخلها الإسلام. لما توفي يحيى بن إبراهيم سنة 448هـ / 1056م قدم عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر⁽³⁾ الذي توغل نحو تسعين مرحلة في بلاد السودان⁽⁴⁾ حيث تمكن من الإستلاء على مدينة كومي⁽⁵⁾ نحو سنة 480هـ / 1076م، وفتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر، إلى أن أستشهد في بعض غزواته سنة 480هـ / 1087م، وهي نفس الفترة التي كان فيها المرابطون يتوسعون شمالا نحو المغرب الأوسط، حيث فتحوا تلمسان⁽⁶⁾ سنة 468 أو 472هـ.

والحقيقة أنه قد لا نكون مغالين إذا قلنا أن قبائل صنهاجة الملمثون - المرابطون - كان لهم الدور الأكبر في نشر الإسلام بصحراء إفريقيا⁽⁷⁾، لاسيما وأن دولتهم كانت تقوم على حكم الفقهاء، الذين كانوا طبقة من المثقفين استقرت بالمدن، مارست وظيفة التعليم والإفتاء والقضاء والحسبة، أضفت على المدن والحياة العامة طابعا إسلاميا، ولكن رغم ذلك، لا يجب أن ننسى دور فئة أخرى ساهمت بهدوء في نشر الإسلام وهي طبقة التجار.

ممالك السودان الغربي:

قامت بإفريقيا عدة ممالك، توسع بعضها ليشمل معظم المنطقة الغربية، أشتهر منها ثلاث ممالك صنعت تاريخ إفريقيا في العصور الوسطى وهي:

- 1- السلاوي: الإستقصاء لدول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي، المؤلف: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ج02، ص07. ابن سماك العمالي: الحلل الموشي في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 2010م، ص66.
- 2- الكري: المصدر السابق، ص237 - 238، ص251. الحميري: المصدر السابق، ص64. الإستبصار، ص215-216. الحموي: المصدر السابق، مج01، ص: 212 - 222. ابن حوقل: صورة الأرض، نشر شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط01، 1430هـ - 2009م.
- 3- ابن سمنك العمالي: المصدر السابق، ص69. ابن عذارى: المصدر السابق، ج04، ص: 14. ابن خلدون: المصدر السابق، مج02، ص: 1883. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: 126 - 127. البكري: المصدر السابق، ص251.
- 4- ابن خلدون: المصدر السابق، مج02، ص: 1883.
- 5- تاريخ إفريقيا العام: تأليف مجموعة من الكتاب، تحت إشراف منظمة اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1990م، مج07، ص131. البكري: المصدر السابق، ص227، هامش01.
- 6- ابن سماك العمالي: المصدر السابق، ص84. ابن عذارى: المصدر السابق، ج04، ص: 29. ابن خلدون: المصدر السابق، مج02، ص: 1885.
- 7- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص127. السلاوي: المصدر السابق، ج02، ص: 09. البكري: المصدر السابق، ص251 - 252.

مملكة غانا⁽¹⁾:

أسستها قبائل السونينكا، وقد اختلف في تاريخ تأسيسها بين القرن الثالث أو الخامس أو السابع الميلادي، ومعناه في لغة البربر الغابة أو التخوم الغابوية، كانت لها عاصمتان، الأولى وتسمى الغابة وهي المقر الإداري الرسمي للمملكة، والثانية هي مدينة كومي (قرب صالح). امتدت هذه المملكة في أقصى اتساعها من السنغال وغامبيا الحاليين غربا حتى بحيرة تشاد شرقا، مرورا بجنوب موريتانيا ومالي وأعلي نهر الفولتا والنيجر، عرفت أقصى مرا تب ازدهارها خلال القرنين 10 - 11م، وقد وصفها الإدريسي بأنها أكثر قطرا وأوسع متجرا، نظرا لغناها بالذهب، وقد دخل الإسلام هذه المملكة خلال القرن 05هـ مع المرابطين الذين فتحوا مدينة أوداغست وكومي سنة 469هـ. ومع مطلع القرن 13م، تمكنت قبائل صوصو التي كانت تكن العداء لسوننكا أن تقضي عليها وتأسس على أنقاضها مملكة مالي.

مملكة مالي⁽²⁾:

تأسست على يد قبائل صوصو التي كانت تسكن أعالي نهر النيجر سنة 1203م ازدهرت خلال القرنين 13-14م ولاسيما في عهد موسى الأول كانكان (1307 - 1332م) أشهر سلاطين مالي، اتخذ مدينة نياي عاصمة له، وبعد حجه سنة 1324 - 1325م) حول العاصمة إلى مدينة تنبكتو، ثم تولى الحكم أخوه مانسا سليمان (1325 - 1336م) اللذان شملت مملكتهما كامل إفريقيا الغربية، وامتدت من المحيط الأطلسي غربا إلى ما وراء منعطف نهر النيجر وتكدة شرقا حتى مناجم الملح بتغازة شمالا، ودام حكم آل علي مائة عام أي إلى 837هـ، ثم حكم الطوارق أربعين عاما بعدما استولوا على تنبكتو وولادة سنة 1433م، وبمجيء سن علي (الكبير) إلى الحكم (873 - 898م) قضى على نفوذ الطوارق في الشمال وعلى الماندينغ في مدينة غاو بعدما حاولوا الانفصال عن

(1) - عن مملكة غانا، ينظر: البكري، ص: 260 وما بعدها. ابن خلدون: المصدر السابق، مج02، ص 1894. تاريخ إفريقيا العام، مج 07، ص131.

(2) - عن مملكة مالي، ينظر: السعدي، المصدر السابق الأبواب الأولى، ابن خلدون: المصدر السابق، مج02، ص 1894-1895. عبد القادر زبادة: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، دراسات ونصوص، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري، 1989م. البكري: المصدر السابق، ص268.

إمبراطورية وفي سنة 898هـ دخلت مالي في طور الضعف نتيجة الإضرابات الداخلية والمنافسة على الحكم، فانفصلت عنها أجزاء واسعة وتمكن الأسقيا محمد الكبير من إنهاء حكم أسرة آل سني، ويتقلد عرش سنغاي وبها يبدأ حكم التكرور.

مملكة سنغاي⁽¹⁾: (أسرة الأسقيات) 1492-1592م

يعود تأسيس هذه المملكة إلى القرن السابع الميلادي على يد قبائل السنغاي التي كانت مستقرة حول منحى نهر النيجر الأوسط، وكانت عاصمتها كوكيا (كوغة على نهر النيجر)، دخلها الإسلام مع مطلع القرن الخامس على يد قبائل الملثمين الصحراوية وفي الفترة نفسها غزتهم قبيلة بربرية(400هـ -1003م) وأسست بها أسرة حاكمة هي أسرة ضياء الليبية (طرابلس) متخذة من مدينة غاو الواقعة على الضفة الشرقية لثنية نهر النيجر الشمالية عاصمة لهم، وقد أقامت هذه المملكة علاقات تجارية مع بلاد المغرب مثل طرابلس و توات والمغرب الأقصى، وفي سنة 735هـ / 1335م قضى على هذه المملكة سن علي كلن - مؤسس إمبراطورية مالي.

أعاد إحياء هذه المملكة الأسقيا محمد الكبير- الأول - مع أواخر القرن التاسع الهجري (898هـ - 1492م) بعد أن قام بثورة ضد سن علي الذي أكثر الفساد وقتل العباد، ولاسيما العلماء والصالحين، وبذلك أسس لحكم التكروريين (أصله من عشيرة سيلا من بلاد التكرور) ودام حكمه إلى سنة 956هـ حيث وسع مملكته إلى البحر المالح غربا وتغازة شمالا، وأعاد طاعة أهل مالي، ثم تولى ابنه أسكيا داود إلى سنة 990هـ، ثم ابنه محمد وكان شجاعا مثابرا ذو نجدة، حتى قيل اثنان من سلاطين سنغاي أكبر من سلطنتهم، أسقيا محمد وحفيده سمييه، ثم ابنه إسحاق سنة 996هـ إلى أن غزاها سلطان المغرب أحمد الذهبي سنة 999هـ أين خضعت لحكم المغرب حتى سنة 1194هـ - 1780م.

1 - عن مملكة سنغاي، ينظر السعدي: المصدر السابق. تاريخ إفريقيا العام، مج04. حوان جوزيف: المرجع. عبد القادر زبادية: المرجع السابق. حسن الوزان: المصدر السابق، ج02.

المبحث الثاني: علاقة المغرب الأوسط ببلاد السودان.

العلاقات التجارية بين حواضر المغرب الأوسط وبلاد السودان

إن التجارة كمنشاط اقتصادي وضرورة اجتماعية لا يمكن تجاهله في أي دراسة، ولذلك أردت أن أنطلق من هذه النقطة باعتبارها وسيلة اتصال سلمية، مكنت سكان بلاد السودان من الاحتكاك بالمسلمين مباشرة، والإطلاع من قريب على تعاليم الإسلام وقيمه، ذلك أن التجارة كانت تمثل إحدى طرق انتقال الإسلام، ومن ثم انتشاره في هذه المناطق.

عرفت التجارة بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء ازدهارا، بعدما تيسرت الطرق وأنشئت المحطات، وظهرت تجارة المسافات، فكان تجار بلاد المغرب عموما، وتجار المغرب الأوسط بصفة خاصة أثناء تواجدهم بالمدن التجارية لبلاد السودان يحتكون بسكانها ويؤثرون فيهم بسلوكهم وأمانتهم وأخلاقهم الإسلامية، وكثيرا ما انتهى هذا الاحتكاك إلى دخول كثير من هؤلاء السكان في الإسلام، كما نشير هنا إلى أن البعض من هؤلاء التجار كانوا يجمعون بين التجارة والعلم، فإذا ما استقر بهم المقام أنشؤوا حلقات للذكر والدراسة، ولا يستبعد أن هذه الحلقات العلمية كان يحضرها أهالي وسكان هذه المناطق، تلقوا من خلالها علوم العربية وحفظ القرآن وأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسير الخلفاء التي أقبلوا عليها بشغف.

فالتجارة إذن لم تكن مجرد لقاء يقوم على المنفعة المادية والربح، بل كانت فرصة لتبادل الأفكار، تتخللها مناقشات وأسئلة، استغلها التجار المسلمون في التعريف أكثر بمبادئ الإسلام، التي تدعو إلى التسامح واليسر والصدق والأمانة، وبذلك وجد هذا الدين طريقه إلى قلوب الناس بصورة سلمية وهادئة. وخلاصة القول أن دخول الإسلام إلى جنوب الصحراء يعود بالدرجة الأولى إلى هؤلاء التجار وهو ما أدى بالبعض إلى ربط انتشار الإسلام بالتجارة واعتبارها السبب الرئيس لدخول عدد كبير من شعوب هذا الجزء من القارة في الإسلام⁽¹⁾.

(1) - جوزيف شاخت: تراث الإسلام، ترجمة مجموعة من الأساتذة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985م، ص137.

إن الفترة التي شهدت بداية دخول الإسلام، يجب إعطاء الفضل الأكبر فيها إلى البربر من أصحاب الجمال الذين كانت قوافلهم التجارية تجوب دروب الصحراء⁽¹⁾ ويكفي أن نستدل على ذلك، أن المدن التي عرفت ازدهارا تجاريا هي التي استقر فيها الإسلام قبل غيرها من المناطق، كما صاحب ذلك طبعاً انتشار اللغة العربية التي هي لغة القرآن إذ لا يجوز ولا يمكن قراءته بغير اللسان العربي.

لم يقتصر دور التجار على تبادل السلع ونشر الإسلام فقط، بل ساهموا في نشأة مدن وحواضر إسلامية كبرى لما احتوته من أسواق ومرافق ومساجد.

عرف المغرب الأوسط بعد الفتح الإسلامي، ظهور مدن وحواضر اختلفت من حيث نشاطها وأهميتها حسب موقعها والظروف السياسية التي مرت بها، فقد كان بعضها عواصم سياسية وكان بعضها حواضر علمية والأخرى مراكز تجارية، وسنقتصر في هذه الدراسة على أهم المدن والحواضر التي كانت على صلة ببلاد السودان وقامت بدور حضاري، سواء في ميدان العلم والثقافة أو التجارة، لأن السلع المتاجر فيها هي الدليل على حضارة المجتمع الذي أنتجها، سنركز في البداية على النشاط الذي قامت به هذه المدن ولاسيما الداخلية والصحراوية المتاخمة لبلاد السودان.

تلمسان:

إن موقع تلمسان كمدينة تربط بين الصحراء والتل، وفي ملتقى الطرق جعلها أحد أهم المراكز التجارية في المغرب الأوسط، وقد وصفها لسان الدين بن الخطيب بقوله: هي خزانة زرع ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع ومتاجرها فريدة الانتفاع وبرانسها رقاغ رفاع⁽²⁾، أما البكري فيقول أنها مقصد تجار الأفاق⁽³⁾ في حين يذكر الزهري أهم صناعاتها فيقول: يعمل فيها من الصوف كل شيء بديع من المحررات والأبدان وأحار يم الصوف والسفاسير والحنابل المكلكلة⁽⁴⁾.

(1) - المرجع نفسه، ص: 137.

(2) - ابن الخطيب: معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق ودراسة، محمد كمال شبانة/ مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1423هـ - 2002م، ص: 184.

(3) - البكري: المصدر السابق، ص: 164.

(4) - الزهري: كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط د ت، ص: 113.

انتظمت تجارة المغرب الأوسط انطلاقاً من تلمسان نحو بلاد السودان، انتظاماً فريداً فقد أسس أبناء أبو عبد الله محمد المقرئ⁽¹⁾ أحد أجداد أبي العباس أحمد صاحب نفح الطيب أول شركة تجارية، التي يقول عنها: اشتهرت ذريته بالتجارة فمهدوا طريق الصحراء بجفر الآبار وتأمين التجارة، واتخذوا طبلاً للرحيل وراية تقدم عند المسير وكان ولد يحيى أحدهم أبو بكر خمسة رجال فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال، فكان أبو بكر ومحمد بتلمسان وعبد الرحمان وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة⁽²⁾ وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهم الصغيران بإوالاين⁽³⁾ فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار، وتزوجوا النساء واستولدوا الإماء، وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والحوز والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما بأحوال التجار... ولما افتتح التكرور كورة إوالاين وأعمالها أصيبت أموالهم... ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه ومكنه من التجارة بجميع بلاده⁽⁴⁾ وهذا الطريق كان يتجه نحو الغرب، وهناك طريق ثان من تلمسان نحو وركلة، ومنها يدخل التجار إلى السودان الأوسط (النيجر حالياً).

تيهت:

اشتهرت تيهت كمدنية تجارية في العهد الرستمي (القرنين 02 و03 هـ) نظراً لكثرة منتجاتها الفلاحية والحيوانية (تربية الخيول)، وقد حاول أئمتها توسيع نفوذهم عن طريق التجارة التي يقول عنها ابن الصغير: استعملت السبل إلى بلاد السودان وإلى

(1) - ترجمته عند التنكي: نيل الإبتهاج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط01، 1423هـ - 2004م، مج02، ص75. النباهي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ط05، 1403هـ - 1983م، ص: 169. محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية، دار الفكر، دت - د ن.

(2) - الحموي: المصدر السابق، مج 03، ص25. الإدريسي: المصدر السابق، مج01، ص: 225 - 226. البكري: المصدر السابق، ص:125. ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 93، الحسن الوزان، المصدر السابق، ج02، ص127، الإستبصار، ص200. الحميري، المصدر السابق، ص300. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص180 - 181.

(3) - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج02، ص: 161. جوان جوزيف، المرجع السابق، ص77.

(4) - المقرئ: نفح الطيب، تحقيق مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، المعرفة الدولية، الجزائر، طبعة 2011م. مج07، ص196 - 197. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج02، ص191 - 192.

جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة⁽¹⁾ ويذكر الباروني أن افلح بن عبد الوهاب (171 هـ - 188 هـ) كانت له مودة مع ملك كوكو⁽²⁾.

ويمكن القول أن الارتياح المبكر لتجار إمارة تيهرت، لبلاد السودان يعتبر بداية العلاقات المنتظمة واكتشاف أمم ما وراء الصحراء، وقد كانت مدينة وركلان واسطة بينهما، فمنها تدخل الجمال المحملة بالنحاس والأكسية وثياب الصوف وصنوف من الزجاج⁽³⁾.

واركلان:

اشتهرت هذه المدينة في القرنين 02 - 03 هـ باعتبارها امتداداً للدولة الرستمية، فقوافل تيهرت لا بد أن تمر عبر واركلان في طريقها إلى ممالك ومدن السودان بل أن مدينة واركلان كانت أكبر مستفيد من هذا النشاط لقربها من حدود الصحراء واعتبارها مركز عبور للتجار المتجهين نحو القيروان ومصر، والتي يقول عنها البكري: «فإن أردت من تادمكة⁽⁴⁾ إلى القيروان فإنك تسير في الصحراء خمسين يوماً إلى ورقلان. وقد أستغل الذهب الوارد من مدن التبر مثل ونقارة⁽⁵⁾ بإعادة سبكه من جديد، وقد ذكر الإدريسي أن أكثر تبر ونقارة يشتره أهل ورقلان⁽⁶⁾ والمغرب الأقصى، التي مثلت دارا للسكة، وبالتالي وفرت السيولة النقدية للتعامل، أما تجارتهم إلى بلاد السودان فهي على الخصوص الفواكه والتمور التي كانت تجلب من سجلماسة وبلاد الزاب⁽⁷⁾ التي اشتهرت بأنواع جيدة مثل الكسبا واللياري حتى أنهم كانوا أثناء بيعه ينادون إليه باسم مدينة بسكرة⁽⁸⁾ إضافة إلى العقيق والشب».

1- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم مجاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406 هـ - 1986 م، ص: 36.

2- البكري: المصدر السابق، ص: 73. الحميري: المصدر السابق، ص: 502. ابن الوردي: المصدر السابق، ص: 67.

3- سليمان الباروني: المرجع السابق، ص: 185.

4- البكري: المصدر السابق، ص: 270 - 272. الاستبصار، ص: 223. الحميري: المصدر السابق، ص: 128.

5- الإدريسي: المصدر السابق، ج 01، ص: 24.

6- الإدريسي، المرجع نفسه، ص: 24.

7- المرجع نفسه، ص: 20. الزهري: المصدر السابق، ص: 123.

8- الاستبصار، ص: 137. الحميري: المصدر السابق، ص: 113. البكري: المصدر السابق، ص: 136 - 137.

ازدهرت واركلان منذ القرن الثامن الهجري، وعنهما يقول ابن خلدون : وهذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان، يسلكها التجار الداخلون إليها بالبضائع⁽¹⁾. أما الحسن الوزان معاصرها في القرن السادس عشر الميلادي فيقول عنها:

الصناع فيها كثيرون وسكانها أغنياء جدا لأنهم في اتصال مع مملكة أكدز⁽²⁾.

إقليم توات:

وهو في آخر المغرب الأوسط من الغرب، ويحتوي على عدة قصور مثل بودة وتامنطيت وتيكورارين⁽³⁾ ونظراً لوقوع هذا الإقليم على طرف الصحراء المشرف على بلاد السودان، فقد كان على صلة بالأسواق في مدن تنبكتو وغاو وجني وولاتة⁽⁴⁾ وقد شجع الملوك، التجار ووفروا لهم التسهيلات ومنحهم الامتيازات، منهم اسقيا محمد الذي أحدث أنظمة اقتصادية منها وضع مراقبين لاستعمال أدوات القياس وحشد عددا كبيرا من شرطة الأسواق وحمل القضاة على البت في القضايا وتأمين سير المعاملات⁽⁵⁾ وقد وصفها العياشي في رحلته خلال القرن 17م أن أغلبية أهلها تجار لما يتوفرون عليه من أنواع التمور والإبل للسفر⁽⁶⁾ ثم يقول: وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من تنبكت ومن بلاد أكدز من أطراف السودان⁽⁷⁾ ولذلك أصبحت توات أحد خطوط التجارة (تنبكتو - تغازة - توات) وقد ساهم ذلك في نمو مدن سودانية أصبحت أسواقاً تجارية كبرى.

1 - ابن خلدون: المرجع السابق، مج2، ص2096.

2 - الحسن الوزان: المرجع السابق، ج02، ص: 171 - 172.

3 - ابن خلدون: المرجع السابق، مج02، ص: 1810. الحسن الوزان: المرجع نفسه، ج02، ص: 133.

4 - ابن خلدون: المرجع نفسه، ص: 1893، تاريخ إفريقيا العام، مج 04، ص: 214 - 215.

5 - تاريخ إفريقيا العام، مج 04، ص 206 - 207.

6 - العياشي: الرحلة العياشية، تحقيق وتقديم: سعد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، ط1، 2006م، ج1، ص: 79 - 80.

7 - العياشي: المرجع نفسه، ص: 80. حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 133.

العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط وبلاد السودان:

إضافة إلى النشاط التجاري الذي عرفته مدن المغرب الأوسط مع ممالك السودان، ازدهرت معه كذلك الحركة الفكرية والعلمية، ولاسيما الفترة الممتدة من القرن الثامن إلى أواخر القرن العاشر الهجري - الرابع عشر إلى القرن 16م، التي عرف فيها المغرب الأوسط قمة النشاط العلمي، حيث تأسست المساجد والمدارس، التي استقطبت العلماء ومئات بل آلاف الطلبة، وامتألت الخزائن بمثلها من الكتب والتأليف والرسائل في شتى العلوم، وبصفة خاصة العلوم الدينية، التي بلغ مداها إلى مناطق بعيدة من العالم الإسلامي، كما نشطت في هذه الفترة حركة التصوف، فأنشأت الزوايا والرباطات، فأصبحت إضافة إلى كونها أماكن للعبادة، تقوم بالتعليم وخاصة في المناطق الصحراوية، حيث كانت تزخر بالكتب والمخطوطات التي دخل الكثير منها إلى بلاد السودان عن طريق التجار. وشكل أحد مصادر الثقافة العربية الإسلامية هناك. وقد ذكر العياشي خلال رحلته أنه لما نزل بإحدى قرى توات⁽¹⁾ (والا)، عثر في إحدى زواياها على سفر من نوازل البرزلي⁽²⁾ أما بواركلا، فقد وجد عند إمام مسجدها مكتبة تضم نحو أربعين سفراً من جملتها التوضيح للتتائي⁽³⁾ وبهرام⁽⁴⁾ وحواشي على الصغرى لمحمد بن يوسف السنوسي⁽⁵⁾.

دور حواضر المغرب الأوسط في نشر الثقافة الإسلامية ببلاد السودان

شهدت العلاقات بين المغرب الأوسط وبلاد السودان ازدياداً ابتداءً من القرن الثامن الهجري، بعد أن أصبحت مواكب حجاج السودان تمر عبر أراضي الجزائر⁽⁶⁾

- (1) - العياشي: المرجع نفسه، ص: 108.
- (2) - محمد مخلوف: المرجع السابق، ص: 245. التنبكي: كفاية المحتاج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1425هـ - 2004م، ج2، ص: 17.
- (3) - التتائي أبو عبد الله شمس الدين محمد ابن إبراهيم، الإمام الفقيه العالم العامل، أخذ عن السنهوري وغيره، تخلى عن القضاء، توفي سنة 942هـ، ترجمته في شجرة النور الزكية، ص272، وكفاية المحتاج، ج2، ص: 230.
- (4) - بهرام تاج الدين أبوالبقاء، الفقيه الإمام، حامل لواء المذهب المالكي بمصر، أخذ عن الشيخ خليل تأليفه وبه تفقه، توفي سنة 805هـ. ترجمته في شجرة النور الزكية، ص239 - 240. كفاية المحتاج، ج1، ص122.
- (5) - السنوسي أبو عبد الله محمد بن يوسف الحسيني، العلامة المتكلم، أخذ عن والده وعن الجلاب وغيرهما، له عدة مؤلفات منها الكبرى والوسطى والصغرى في العقائد، توفي سنة 895هـ. ترجمته في شجرة النور الزكية، ص266. كفاية المحتاج، ج2، ص205.
- (6) - ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1895. السعدي: المصدر السابق، ص07.

والتي ستأسس لروابط ثقافية بين المنطقتين، حيث ستكون تلمسان وتوات وواركلان أهم محاورها، والتي ساهمت بفعالية في الامتداد والتواصل الثقافي. وخاصة مع مملكة سنغاي وعاصمتها تنبكتو.

لقد حرص ملوك سنغاي على تمكين شعبهم من الإسلام وثقافته، فقد عمل الأسقيا محمد على ترسيخ الإسلام ونشره في السودان⁽¹⁾ فأصبحت البلاد في عهدهم ذات ارتباطات وثيقة بالعالم الإسلامي وبالخصوص بلاد المغرب⁽²⁾ ومصر والحجاز، ولاشك أن هذا الارتباط قد مكن هؤلاء من نقل الثقافة الإسلامية.

ومن مظاهر هذا التواصل، إقبال طلاب بلاد السودان على العلم، وهو ما دفعهم إلى الرحلة نحو بلاد المغرب وذلك لأخذ العلوم الدينية واللغة العربية من مصادرها أو من أجل الاستزادة في العلم، كما أنتقل كثير من فقهاء وعلماء المغرب الأوسط نحو بلاد السودان لنشر العلم أو من أجل التوظيف، خاصة وان ملوك سنغاي كانوا يكرمون العلماء ويجلوهم، وقد وصف الوزان ذلك قائلاً:

في تنبكتو عدد كثير من القضاة والأئمة، يدفع إليهم الملك جميعاً مرتباً حسناً، ويعظم الأدباء كثيراً⁽³⁾ وكان الأسقيا محمد يصاحب العلماء والقضاة ويمنحهم الأولوية في الدخول عليه.

علماء المغرب الأوسط في بلاد السودان:

ونتيجة لهذا التواصل، انتقل عددٌ كبير من سكان المغرب الأوسط نحو المدن الرئيسية في المملكة مثل تنبكتو⁽⁴⁾ التي نمت وتوسعت بفضل الإقبال على سكنائها، وقد أشار السعدي أنه من بين الواردين عليها، أهل مصر وفزان وغدامس وتوات، وهكذا اصطبغت هذه المدينة بالطابع الإسلامي، ومن أشهر الشخصيات التي استقرت بعاصمة مملكة سنغاي، الفقيه أبو القاسم التواتي الذي تولى إمامة المسجد الكبير

1- السعدي: المصدر نفسه، ص: 72. تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص: 184.

2- عبد القادر زبادية: المرجع السابق، ص: 57.

3- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص: 167.

4- السعدي: المصدر السابق، ص 20 - 21. عبد القادر زبادية: المرجع السابق، ص: 10.

بتبكتو بعد وفاة إمامه عبد الله البلبالي جد جدة السعدي صاحب التاريخ، وكان يعلم الأطفال القرآن إلى أن توفي سنة 922هـ أو 935هـ. ويظهر أن هناك جالية كبيرة من أهل توات كانت تسكن تبكتو وكاغو، حيث يذكر السعدي دائماً أن هناك خمسين رجلاً كلهم أمثال أبي القاسم في الصلاح والعبادة⁽¹⁾.

نتج عن هذه العلاقات رواج الكتب والمخطوطات التي انتقلت من المغرب الأوسط إلى بلاد السودان، وقد بلغ من فرط الإقبال عليها، أن أصبحت من السلع الرائجة لأنها كانت عمدة الطلاب هناك، حتى أصبحت في المرتبة الثانية بعد تجارة الذهب، وفي ذلك يقول الوزان: تباع مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، تدر أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع⁽²⁾.

ولاشك أن دخول هذه المؤلفات وتداولها قد مكن هؤلاء السكان من معرفة الدين الإسلامي أكثر واستوعبوا اللغة العربية وبلاغتها، وهو ما أدى إلى ظهور طبقة مثقفة ثقافة عربية إسلامية، قامت بإنتاج مؤلفات دينية وتاريخية باللغة العربية، نقلت الإسلام حتى مناطق الغابات الجنوبية⁽³⁾.

دور محمد المغيلي في نشر الثقافة الإسلامية:

يعد محمد بن عبد الكريم المغيلي من أشهر الشخصيات العلمية والفكرية التي ترددت على بلاد السودان، وكان لها دوراً كبيراً في نشر الثقافة الإسلامية بفضل نشاطه في المدن التي زارها، وعلاقاته بملوكها أو من خلال مؤلفاته التي أصبحت تحظى بالقراءة والشرح. فقد دخل مدينة تكدة واجتمع بسطانها وقرأ عليه أهلها، وانتفعوا به، ثم اجتمع بسطان كنو واستفاد عليه. وكتب له رسالة في أمر السلطنة

(1) - السعدي: نفسه، ص: 57 - 60. الولاقي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ - 1981م، ص: 69 - 70. ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص: 255. تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص: 215.

(2) - الحسن الوزان: المصدر السابق، مج2، ص: 176. مارمول كرنخال: إفريقيا، ترجمة مجموعة من الأساتذة، دار النشر المغربية، الرباط، 1988م، ج3، ص: 203.

(3) - تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص: 219.

يخضه فيها إتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلمهم أحكام الشرع وقواعده، ثم ارتحل إلى بلاد التكرور فوصل إلى بلاد كاغو، واجتمع بسلطانها الأسقيا الحاج محمد، وجرى على طريقته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽¹⁾ ويظهر من الجولة العلمية أن المغيلي كان يقوم بحركة إصلاحية تقوم على النصح والتعليم.

درس المغيلي بمساجد المدن التي مكث فيها أو زارها مثل تكدة وغاو وكانوا، ولعل من أهم العلوم التي أدخلها المغيلي إلى بلاد السودان علم المنطق الذي أخذه عنه عدة علماء، وحظيت منظومته بالشرح والدراسة.

رد المغيلي على أسئلة الأسقيا محمد:

تعد أسئلة الأسقيا محمد التي وجهها للمغيلي من أهم الوثائق التاريخية التي سلطت الضوء على الأوضاع السياسية والاجتماعية في مملكة سنغاي، والتي طلب منه الإجابة عنها حسب مفاهيم الإسلام، ويبدو أن هذه القضايا كانت تآرق الأسقيا محمد، الحاكم المسلم الذي كان يحس بعظم هذه المسؤولية حيث يقول: «وأنا أطلب من الله تعالى أن يعينني على حمل هذا الثقل»⁽²⁾.

وعليه تعد رسالة المغيلي من أهم ما كتبه خلال تروده على بلاد السودان، والتي كتبها بعد عودته إلى بلده سنة 1502-1503م إثر مقتل ولده عبد الجبار من طرف اليهود، أجابه فيها عن مسائل اجتماعية ودينية وسياسية بكل وضوح وحزم معتمدا على الكتاب والسنة وأقوال الخلفاء والعلماء، حيث كثيرا ما كان يستشهد بآيات وأحاديث واجتهادات السلف، كما كان المغيلي ينصرف أحيانا في أجوبته إلى شرح بعض المعاني الدينية المرفقة بالنصائح والتوضيحات والإرشاد، دعوة إمام المسلمين إلى حفظ الدين باعتباره أحد مقاصد الشرع لأن الإمامة هي حراسة الدين وسياسة الدنيا⁽³⁾ نورد هذه القضايا مرتبة كما وردت محققة في كتاب الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، لعبد القادر زبادية وهي:

(1) - ابن مريم: المصدر السابق، ص: 255. كفاية المحتاج، ج 2، ص 220.

(2) - عبد القادر زبادية: المرجع السابق، ص: 161.

(3) - الماوردي: الأحكام السلطانية، تحقيق نبيل عبد الرحمان حيوي، شركة الأرقم للنشر والتوزيع بيروت، د ط، د ت، ص 63.

- 1 - صفة العلماء والفقهاء وعلاقتهم بالسلطة ودورهم فيها.
- 2 - الموقف من السلطان سن علي وفترة حكمه.
- 3 - انتشار بعض مظاهر الشرك كتقديم الذبائح والندور للأشجار ونحوها، وكيف يجب إزالة والقضاء على هذه المظاهر.
- 4 - علاقة الحاكم أو السلطان وأعوانه بالرعية، وكيف تكون العلاقة بين الأمم الكافرة المسالمة للمسلمين.
- 5 - هل يجوز فرض الخراج على البلاد المفتوحة، وكيف تنظم جباية الزكاة.
- 6 - مسألة الميراث، حيث انتشر في مملكة سنغاي توريث ابن الأخت وحرمان الابن.
- 7 - انتشار السحر وكتابة التمام وبعض المعاملات المخالفة للشرع كالتطيف في المكيال والميزان والغش في البيوع، وقضايا أخرى اجتماعية كالاختلاط والحجاب.

المبحث الثالث: الثقافة العربية الإسلامية في بلاد السودان

الحواضر العلمية لبلاد السودان:

عرفت مملكة سنغاي ابتداء من القرن 14م نهضة علمية وعمرانية نتيجة ازدهار التجارة وانتشار الإسلام فبرزت مدن انتظمت خططها واتسع عمرانها فأصبحت حواضر⁽¹⁾ يقصدها التجار والعلماء والطلاب، من المدن التي قامت بدور تاريخي في الميدان الفكري والعلمي:

مدينة تنبكتو:

مدينة أنشأها قبائل صنهاجية تسمى مقشرون، أواخر القرن الحادي عشر ميلادي على ضفة نهر النيجر. خضعت تنبكتو لمملكة مالي خلال القرن الثالث عشر الميلادي، ثم لمملكة سنغاي أواخر القرن الخامس، كانت منازلها في البداية بسيطة جداً عبارة عن زريبات من الأشواك وبيوت الأحشاش⁽²⁾ ثم توسعت وتحسنت عمارتها، بعد أن اتخذها الأسقيا محمد، عاصمة له وشجع على عمارتها، فسكنها العلماء والصالحون

(1)- ابن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط09، 1427هـ - 2006م، ص270.

(2)- السعدي: المصدر السابق، ص:21.

والطلبة والتجار من كل بلاد، من أهل مصر وفزان وغدامس وتوات⁽¹⁾ حيث بلغ عدد سكانها في عهد الأسقيا داود (956-990هـ) ثمانون ألف نسمة.

اشتهرت المدينة بمساجدها ومدارسها التي بلغت في القرن السادس عشر حوالي مائة وثمانين مدرسة قرآنية، أمها الآلاف من الطلبة القادمين من جميع أنحاء السودان والساحل كما اشتهرت بجامعتها، ومنها تخرج مؤرخا السودان الغربي، القاضي محمود كعت (1002هـ-1593م) صاحب كتاب تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور، وعبد الرحمان السعدي بن الحاج المتوكل صاحب تاريخ السودان، وهما من أعظم ما كتب عن تاريخ المنطقة، ونتيجة لنشاطها العلمي أطلق عليها المدينة المقدسة لكثرة مساجدها وانتشار التعليم بها لاستقرار العلماء والفقهاء ووفرة الكتب التي جلبت إليها من مصر وبلاد المغرب، ويكفي أن عالم المغرب الأوسط آنذاك محمد المغيلي قد درس بمساجدها. يقول عنها السعدي صاحب التاريخ: هي مسقط رأسي وبغية نفسي، ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى للعلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين⁽²⁾.

جـني:

تقع في حوض النيجر جنوب تنبكتو، شيدها السوننكا ملوك غانا في القرن الثالث عشر، وجعلوها مدينة تجارية، فأصبحت أكبر سوق في الجنوب، ورغم أنها لم تكن في مستوى مدينة تنبكتو من حيث النشاط والازدهار العلمي، إلا أنها احتوت عديد المدارس، وجامعة لتدريس العلوم الدينية، وبها الأئمة والفقهاء، يقول عنها السعدي: وهي مدينة عظيمة ميمونة... وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين أسلم أهلها عند تمام القرن السادس والسلطان كنبر هو الذي أسلم وأسلم أهلها بإسلامه⁽³⁾.

(1) - المرجع نفسه، ص: 21.

(2) - المرجع نفسه، ص: 20 - 21. تاريخ إفريقيا العام، مح 04، ص: 220. الحسن الوزان: المصدر السابق، ج 02، ص 165. رمول كرنخال: مصدر سابق، ج 3، ص: 201. جوان جوزيف: مرجع سابق، ص 92. كارل براوكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمه إلى العربية: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1973، ص 639.

(3) - السعدي: المرجع نفسه، ص 12. الوزان: المرجع نفسه، ج 02، ص: 163. جوان جوزيف: المرجع نفسه، ص 84.

أوداغست:

وهي من المدن التي فتحها المرابطون، ورغم أنها اشتهرت بالنشاط التجاري فقد عرفت كمدينة علمية، وصفها البكري بأن بها جامع ومساجد كثيرة أهلة، في جميعها المعلمون للقرآن⁽¹⁾.

- كان التعليم على مستويين:

المدارس القرآنية: والتي تقوم بتعليم القرآن وحفظه وتعليم الكتابة واللغة العربية. المستوى العالي: يتم من خلاله تدريس العلوم الإسلامية كالتوحيد والتفسير والحديث والفقهاء المالكي والنحو والبلاغة والمنطق والتاريخ.

أشهر الشخصيات العلمية ببلاد السودان:

أبو عبد الله أندغ محمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح⁽²⁾:

يقول عنه السعدي: معدن العلم والفضل والصلاح، عالم جليل تولى قضاء تنبكتو في أواسط القرن التاسع في دولة التوارق.

أبو حفص القاضي⁽³⁾:

برع في علم الحديث والسير والتواريخ وأيام الناس، وأما الفقه فقد بلغ فيه الغاية القصوى حتى قال بعض من عاصره من الشيوخ أنه لو كان موجودا في زمن ابن عبد السلام⁽⁴⁾ بتونس لاستحق أن يكون مفتيها.

أبو العباس أحمد بابا التنبكتي:

الفقيه العالم العلامة فريد دهره ووحيد عصره البارع في كل فن من فنون العلم، ترك أكثر من سبعمائة مؤلف قبل وفاته سنة 943هـ / 1524م في الفقه والنحو.

(1)- البكري: المصدر السابق، ص 237 - 238.

(2)- السعدي: المصدر السابق، ص: 28.

(3)- المرجع نفسه، ص: 34.

(4)- أبو عبد الله بن عبد السلام الهواري التونسي، قاضي الجماعة بها، وعلامتها الشيخ الفقيه الحافظ، المتبحر في العلوم العقلية والنقلية، أدرك جماعة من الشيوخ وأخذ عنهم، له شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعي/ توفي بالطاعون سنة 743هـ. ترجمته في شجرة النور الزكية، ص 210، نيل الإبتهاج، ج 02، ص: 59.

أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت (ولد التنبكتي)⁽¹⁾:

شرح منظومة المغيلي في المنطق وكتب حاشية على شرح التتائي على خليل نبه فيه على مواضع السهو منه.

العاقب بن عبد الله الأنضميني المسوفي⁽²⁾:

من أهل تكدة أخذ عن المغيلي كان حيا قريبا من 950هـ شرح رجز المغيلي في المنطق، توفي سنة 973هـ.

محمد بن محمود بن أبي بكر التنبكتي:

أخذ عنه التنبكتي رجز المغيلي في المنطق، كان فقيها عالما. تولى قضاء تنبكتسنة 959هـ، كان يبذل نفائس الكتب الغزيرة الغربية للناس ولا يفتش عنها بعد ذلك توفي سنة 1002هـ.

محمود بن عمر بن محمد آقيت: أشتهر علمه وصلاحه في البلاد وطار صيته في الأقطار شرقا وغربا، فانتفع به كثيرون وأحب العلم ببلده وكثر طلبة الفقه عليه، نجح منهم جماعة فصاروا علماء، وأكثر ما يقرأ المدونة والرسالة ومختصر خليل، توفي سنة 955هـ.

مظاهر الإشعاع الثقافي:

انتشار المساجد:

أدى دخول الإسلام لبلاد السودان إلى انتشار المساجد لأداء الصلوات، ولتدريس اللغة العربية، وتحفيظ القرآن، وغالبا ما كانت المدن الكبرى تحوي مجموعة من المساجد، ومسجدا واحدا كبيرا يسمى المسجد الجامع، وقد أولاها ملوك سنغاي اهتماما من حيث تشييدها وترميمها والإنفاق على الطلبة.

فقد ذكر السعدي أن الأسقيا داود (1549-1583م) ساهم بأربعة آلاف خشب سنة 878هـ فأتم بناء المسجد الكبير وقام منسا موسى بعد رجوعه من الحج سنة 902هـ ببناء مسجد بمدينة كاغ وحبس تابوتا فيها 60 جزءا من المصحف

(1) - ترجمته في شجرة النور الزكية: ص: 286. فتح الشكور، ص: 29.

(2) - ترجمته في نيل الإبتهاج، ج: 01، ص: 399. كفاية المحتاج، ج: 02/ ص: 295.

ومن المساجد التي اشتهرت بها تنبكتو مسجد سنكوري الذي بنته امرأة من مالها الخاص والذي جدده القاضي العاقب سنة 986هـ— ومسجد الجنجربير، ومسجد سيدي يحي إضافة إلى المسجد الكبير⁽¹⁾.

الجامعات:

ورغم أنها لم تكن تضاهاى ما كان موجودا في بعض مناطق العالم الإسلامي أو في أوروبا، لكنها كانت حسب الإمكانيات وطبيعة البلاد، وقد ساهمت في الحركة الثقافية و العلمية ونقلت التعليم من المرحلة التقليدية البسيطة إلى مرحلة التعمق والبحث والاجتهاد ودراسة المؤلفات الصوفية والفلسفية.

أثار وأبعاد الثقافة الإسلامية ببلاد السودان

لقد تأثرت شعوب وممالك إفريقيا بالحضارة والثقافة العربية الإسلامية، فقد أعطى الإسلام والمسلمون مكانة لسكان السودان، عكس الأوربيين الذين نشروا أفكارا سيئة أثناء اكتشافهم للقارة، فقد وسموهم بالجنس الأسود وإفريقيا السوداء، حتى زعم بعض رجال الدين منهم أن هذا الجنس بعيد عن صفة البشرية، وعليه يجوز صيده وبيعه⁽²⁾، ولهذا أقبل هؤلاء السكان على الإسلام، لما يتميز به من نظام وقيم أخلاقية وحضارية انعكست على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

الاجتماعية:

لقد أدى انتشارا لإسلام إلى القضاء على بعض السلوكات الاجتماعية السائدة وغير كثيرا من عادات البلاد، وانتشرت بدلها الفضائل الإسلامية، وقد وصف السعدي مدينة جني بأن من طبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمواساة⁽³⁾ رغم ما بينهم من منافسة على الدنيا. ومن مظاهر تأثير الإسلام، الأخذ بالتقويم الإسلامي في أجزاء واسعة في إفريقيا ودخول مفاهيم عربية كثيرة في عدد من اللغات الإفريقية

(1) - عن إنشاء المساجد في مملكة سنغاي، يراجع: السعدي، تاريخ إفريقيا العام، مج 04، ص 29.

(2) - حسين مؤنس: الحضارة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1978م، ص: 09.

(3) - السعدي: المصدر السابق، ص 11.

مثل الهاوسا وال فولوا والماندينغا، مما أدى إلى إثراء هذه اللغات حيث دخلت بعض المصطلحات والألقاب العربية.

السياسية:

أرسى الإسلام في إفريقيا مفهوم الأمة والولاء للدولة بدل العرق أو العشيرة، ولذلك يصف أحد الكتاب الأفارقة ذلك بقوله: ففي المناطق التي كانت السيطرة الإسلامية قد استقرت فيها، كان الإسلام قد نجح في إرساء تماثل إقليمي أكثر منه اثني⁽¹⁾، وفرض طاعة السلطة، وكان ذلك مفيدا لكفاءة الإدارة والتجارة. وقد كانت الحركة الإسلامية أول من ناهضت الاستعمارية في إفريقيا، ومن أهمها حركة الجمالية التي أسسها الشيخ حمى الله، حيث نشطت في السنغال والسودان الغربي وموريتانيا والنيجر.

أخذت مملكة سنغاي بكثير من النظم الإسلامية، فكان القضاء إسلاميا حسب المذهب المالكي. وقد اشتهرت بهذه الوظيفة في مدينة تنبكتو أسرة القاضي محمد عمراقت (1499 - 1548م)

العمراية:

برزت مآثر الثقافة الإسلامية بوضوح في الجانب العمراني حيث تغيرت ملامح المدن التي أخذت طابعا إسلاميا، وبخاصة مدينة تنبكتو فقد ذكر ابن خلدون، أن منسا موسى أراد أن يتخذ بيتا في قاعدة سلطانه، فأطرقه أبو إسحاق الطويجن ببناء قبة مربعة الشكل، إستفرغ فيها إجادته وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة، فجاء من أتقن المباني ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم⁽²⁾، وهكذا دخل الطراز المعماري الأندلسي المغربي إلى إفريقيا.

(1) - تاريخ إفريقيا العام، مج07، ص: 528.

(2) - ابن خلدون: مصدر سابق، ص: 1895.

